الشّعر الدَّنماركي الحديث

منعم الفقير

رئيس جمعية الشّعر/
اتحاد الكُتاب الدَّنماركيين

obeikandi.com

- **قبل الشعر**

إن تناول الشّعر الدَّنماركي يبقى ناقصًا ما لم يُلحق بعرض للبيئة، والبيئة هنا "بيئة النص"؛ فهي اصطلاح مركب من ثلاثة عناصر هي: المناخ، الطبيعة والمزاج.

المناخ المعروف بتطرفه وتذبذبه، الطبيعة توالي تقديم عروض تحولات منظارها الخاضعة قسرًا لتعاقب الفصول. في الدَّنمارك توجد فصلان وليسَ أربعة؛ فصلان غير متعادلين، هما شتاء طويل جدًا وصيف قد لا يرى أحيانًا بالعين المجرَّدة. وبينهما مَنْ يقول إنهما شتاءان لا غير؛ الأول أبيض (نسبة إلى تساقط الثلج)، والثاني أخضر (نسبة إلى اخضرار الأشجار).

أما المزاج البشري فهو متقلب وسريع العطب. المزاج تعبير عن لحظة انفعال، المزاج هو أيضًا آلية الشعور في التعاطي مع المؤثر.

بمعنى أن المزاج البشري رهينة بيئة إن لم تكن خائنة فهي متلكئة بوفائها. البيئة هنا تُعدُّ الحاضنة الأولى للمصدر، مصدر التفكير الذي يضغط أو يتطلَّب اتخاذ موقف وتدبير تصرف في التعبير عنه. الشعور بالرضا والابتسامة الناتجة عنه، قد لا ينشأ تحتَ تأثير خبر سعيد أو مفاجأة سارة؛ بل بسببِ شروق الشمس المفاجئ واندفاع الدفء نحو المسامات.

وأما المناخ فهو عامل حاسم في بلورة التعبير عن الشعور بالموقف ودافع نحو تصرف ما، فمزاج الصيف يجنح نحو البهجة فيما يتكتم عليها المزاج الشتوي. البيئة بتعبيرها المناخي والبشري صالحة لنشوء الكآبة، والكآبة احتجاج شعوري مرضي أو طارئ على انقراض الوفاء.

لكن حيالَ ذلكَ وتفاديًا للانخراط في الكسل ومنعًا لاستشراء الكآبة، تأتي الثقافة لتعلن عن وساطتها أو تدخلها عبر دعوى التنظيم وإلزام الانضباط به. والثقافة إجراءٌ رسميٌّ لضبط حركة الوجود البشري وتنظيم العيش المشترك وإشهار شروطه؛ لضمان استمرار أمن الدولة ورعاية مصالحها. والثقافة بوصفها عَقدًا شفويًا (أعراف) وتحريريًا (قوانين) ينظم علاقات الأفراد عندما يكونوا فرادى وعلاقاتهم بالفرد عندما يحتشدوا كجماعة. أنت لست وحدك فهُناكَ دائمًا آخر له الحق في أن يحيا كما يشاء.

الشِّعر الدَّنماركي الحديث هو شعر التجربة العامة والشخصية معًا، شعرٌ مستوحًى من ذكريات مرَّت علينا فعلاً وأخرَى لم تحدث بعد؛ لكن من المتوقع حدوثها مع أية تجربة ممكنة. وإن تأخرت أي الذكريات؛ فهُناكَ خيال يصلح أن يكونَ ورشة حثيثة لإنتاج الذكريات وعمل الأحداث وصناعة العالم، العالم الصنيع هذا لا يتوجَّس من جنوحنا نحو الخيال، ويرحب أيضًا بكائناتنا الخرافية وأحلامنا الأسطورية.

فالشّعر الدَّنماركي الحديث تقف وراءه بيئة باردة ومعتمة (من عتمة أكتوبر إلى رجفة نوفمبر)، والشاعر يتملص من سداد استحقاقاتها من كآبة وشعور بالعبث؛ فيمضي، يتحدَّى مقومات البيئة المضادة ويذهب بعيدًا في مناحي أناه وسواه.

ومن هنا يتضح أن من المتعذر تناول الشّعر بمعزل عن مصادره ومكوناته من المكان والتجربة؛ بوصفهما أساسيّ المشهد الشّعري؛ لكنَّهُما ليسَا بمنأى عن حركة التغيير والتحول، و ليسَ بعيدًا تعرضهما إلى تغيير غير مرغوب أو مرجو، مثلاً؛ قد يصبح المكان غريبًا والتجربة عبئًا. مما ينذر ذلكَ بنشوء حنين، حنين يصبح في درجة معينة، انعزاليًا، متموضعًا في ماضي المكان، ورافضًا الانخراط في حداثة الحاضر. يتضح أن الإنسان ماضوي النزعة، الماضي بشرٌ بوجوده، فيما ينذر المستقبل بعدمه.

obeikandi.com

يأتي الحاضر كما لو أنه مكيدة زمنية يتنصل كثيرون من التورط بصنعه أو الاعتراف به، فجأة وجدوا أنفسهم في ربقة حاضر، حضرَ ليصفِّي ماضيًا يتخلف عن الحاضر. فالحاضر انتهى من تغيير الشوارع، وأصلح واجهات المحلات، وأطلق موديل المعروضات، وقام بتغيير ديكور المقاهي وتحول بموسيقاها. الحاضر يعني أيضًا انشغال الناس عنهم، وميلهم إلى السُّرعة ومنح ذواتهم إلى البرمجة، الحاضر الاستهلاكي يجعل الوقت سلعةً قابلة للمنافسة ومعروضة للاقتناء. مشهدٌ كهذا في واقعه وتخيل مرارته، بقدر ما يكون مألوفًا من جيل يكون غريبًا على جيل آخر، لكنَّهُ في كل الأحوال يحتاج إلى وقت طويل لنفي غرابته أو إثبات ألفته.

في الوقت الضحية بين صعود الألفة وبين انهيار الغرابة واندحار الدهشة، يقوم الحنين إلى ما قد مضى، ويتدخل الشّعر بجمالياته، للمساهمة في تشكيل الحنين إلى الماضي؛ ماضٍ بشريٍّ أو قوميٍّ، ويتم اختراع سعادات واكتشاف مفقودات، وتصوير متع واستدعاء ألم البحث عنها وتصنيع لذَّة العثور عليها. كل هذا يحدث والتغيير جارٍ، الحنين يقوم على أنقاض الأمكنة، والزَّمن يُتهم بالتآمر، ويلعب على تبديل الأدوار، فيتحوَّل اللاعب إلى متفرج. كل هذا يحدث وسط تآمر طبيعة ساكنة وزمن متحرك. نعم؛ يحدث ليذكي الانفعال ويصعِّد من القلق ويشيع التوتر.

obeikandi.com

- **معجمٌ شعريٌّ شعبيٌّ الطابع**

هُناكَ علاقات جوار وتعارف مع رفاق الكون من حشرات، نباتات وظواهر. وهُناكَ حشرات نباتات وظواهر تحظى بشهرة واسعة، ولها شعبية بين البشر في الدَّنمارك؛ فيتم التعرُّف عليها في وقت مبكِّر من الطفولة وفي أعوام التعليم الأولى. تنتشر هذهِ المخلوقات الرقيقة والأليفة في حكايات قبل النَّوم (عادة دنماركية إذْ لا ينام الطفل قبل أن يقرأ عليه أحد الأبوين قصة مصوَّرة، تُدعى هذهِ القصة: حكاية تصبح على خير). أسماء الأشياء والتعرف على أشكالها وألوانها لا يتطلَّب جهدًا في البحث عنها في المعاجم اللغوية أو في الكتب العلمية؛ فقد باتت معروفةً وشائعةً ولها مكانها الراسخ في اللغة اليومية، ويجري تداولها يوميًا سواء في الأحاديث الشخصية، أو عبر الإشارة إليها في الوسائل المقروءة، أو في البرامج المرئية والمسموعة.

والشِّعر الدَّنماركي الحديث يحفلُ بتسميات؛ الزهور، أصناف النباتات، وأنواع الكلاب، ومختلف الظواهر الطبيعية. ولعل إشاعة تسمية هذهِ الأشياء وإتاحة فرص استخدامها يُراد منه منافسة عبارات الحقائق التجريدية، الأيدولوجيا والعقيدة، ومفرداته السائدة في الخطاب الثقافي اليومي. ويجري الحفاظ على

obeikandi.com

مفردات الخطاب الثقافي من خلال التكرار والتعامل معها بشيء من القدسية، تصل أحيانًا حدَّ الإكراه على احترامها.

الشِّعر من خلال احتفاله بالأشياء، إنما يُذكِّر ببهجة العيش مع كيانات مدركة، وأنها بكُتلِها وألوانها تُشكل بُعدًا حيويًا من لوحة وجودنا الكونية. ولعل نظرةَ الشِّعر إلى هذهِ الأشياء، تتحول إلى قيمة تدعو إلى تعارفٍ شعوريٍّ على رفاقنا من الحشرات، الحيوانات، النباتات والظواهر. وتدعو القيمة هذهِ إلى تسجيلها واستضافتها في لغتنا اليومية. هذهِ اللغة المتخمة بمفردات تجريدية ومفاهيم تأخذ عن العُنف نحتَ أو اشتقاقَ مفرداتِها، وأشياء كهذهِ نتقاسم معها الأذى، الشر، أو كفاحنا القدريّ من أجل ما هو طيب وجميل. إن نشر تسميات الأشياء يُشيع حالةً من الشعور بالطمأنينة، لعلنا نتمكن من خلالها أن نحتوي الميل إلى العُنف والدعوة إليه وإنهاء تبريره، ونعالج جماليًا ما يورث من كراهية تؤدي إلى توتر قد يتحوَّل إلى فعل عنيف يؤسس إلى صدامات.

نحنُ في الترجمة واجهنا صعوبة في ترجمة القصائد التي تحمل تسميات الحشرات، النباتات، وحيوانات أخرَى وخصوصًا الكلاب. ومن الصَّعب وجود مقابلات لها بالعربية، فكثير من التسميات ذات الصلة بالأشياء قد تم تعريبها أو توليدها، أو

استضافتها كعبارات دخيلة، وكانتْ العبارات الدخيلة ضيفات ثقيلات يتحفظ الترحيب "بهن" في حضرة الجمل والصياغات. وأذكر أننا أردنا أن نجد كلمة عربية تقابل عبارة دنماركية هي يتساوَى فيها الليل بالنهار، وتحدثُ هذهِ الظاهرة مرتين في العام، فوجدنا أن القاموس يشرحها ولا يُقدم اصطلاحًا أو عبارةً تعرِّف هذهِ الظاهرة بكلمة تختصُّ بها؛ فنجد أن العربية تُفرد معجمها لعبارة تتعلَّق بالجَمل، أو السيف، أو اللبن في حالاتها المختلفة؛ لكننا نجدها تتركُ المبادرةَ للغاتٍ أخرَى في عرض مفرداتها. وقد فضَّلنا عدم إرهاق صفحة القصيدة بهوامش وملحقات؛ مراعاةً للجانب البصري فيها، ولا نريد أن يوقِفَ القارئُ تفاعلَه مع القصيدة وينصرف عنها باحثًا عن معاني كلماتها الغريبة على معجمه اليومي في المعاجم اللغوية أو الكتب العلمية. ولعل هذا يدعونا لتغذية لغتنا اليومية بمفرداتٍ أخرَى تشاركنا حواسَّنا في بصرها ولمسها.

• استدعاء عاجل لعالم مطلوب

الشِّعر الدَّنماركي الحديث يجنحُ نحو أمكنةٍ وأحداثٍ لينشئَ منها وطنًا، ويدوِّن له تاريخًا ويسكنه كائنات يكتب لها حياتها ويقدر مصائرها ويخترع لها أزمنة؛ فنجد شاعرًا ينظرُ إلى ذلكَ بدوافع

الانفصال عن الحاضر المختلف حوله والعودة إلى ماضٍ متفق عليه. ينسحب من حاضره مندفعًا إلى ماضٍ لم يعشه، قد يكون احتجاجًا أو إعلان استقالته الروحية من عصرٍ ماديٍّ. لنتأمل الصديق الشاعر ت. س. هوْي:

كما كما تعرف كنتُ وجهًا للحرب،

منذ الفجر الذي فتحت فيه عينيَّ على نقطة الاختراق من جارٍ ضد جار.

في الشارعِ الرئيس كانتْ الأكاليلُ معلقةً

ترجرج عينًا مسملة وأذنًا مقطوعة بين المنازل.

المشعرون اغتصبوا نساءَ الرجال الصُّلع في موقَفِ الباص،

وأمام مبنى البلدية حادُّو البصر يقذفون أطفالاً بنظارات إلى الجوِّ ليتلقفونهم بالحِراب.

فقط المسنون يمكن استعمالهم كحطبٍ جافٍّ للمواقد.

السَّعادة شيءٌ يطوّق العُنق.

هكذا تغدو مناطقي خربة

ليحصل الجبل الأجرد على أهميتهِ.

في طريقها للحصولِ على الماءِ أُصيبتْ أمي بظهرها،

لذلكَ اختبأتْ تحتَ الأرض.

وعلى سطح الأرض تصخبُ وتشتعلُ الحرب؛

بينما السَّماءِ تُطلِقُ عليها النيران فتُصابُ وتتشظَّى.

obeikandl.com

تحتَ حمايةِ وقفِ إطلاقِ النار الهش هربتُ،
والموت الذي بهيئةِ رجل يحملُ منجلاً قرقعتُهُ عند العُنق.
تسلُّق جبالٍ باردة، انـزلاقٌ إلى وديانٍ مهجورة، نـومٌ في وحـل،
وغرسُ أسنانٍ في حصان فاطس زحفًا على الرُّكب لقطع الطَّريق.

فالشاعرُ يعيشُ في الدَّنمارك المعروفة بأمنِها وسِلْمها الأهليِّ وحيادِها. لم يكن متعرضًا أو طرفًا في حرب، إنما كان مشاهدًا لها وشاهدًا عليها، فهي تطلُّ؛ أي الحرب؛ عليه عبرَ نافذتَهِ الدَّائمةِ الاشتغال/التليفزيون، تضعه في ويلاتها، وتنشر عليه خرابها ودمارها. الدَّافعُ الدِّراميُّ أو الموقفُ من الحربِ دفعَ الشاعرَ إلى تدوينه في كراستهِ الشُّعوريةِ المفتوحة. إنَّ تمثُّل فظائع الحربِ رُبَّما يكون أملاً منه في الحثِّ على شجْبِها.

أخذَ اشتعالُ الحروبِ وتحطّم الطائراتِ في تشكيل مناطقَ إلهامٍ خلفيةٍ ومواقفَ متقدّمةٍ لشعراء يرون ذلكَ جزءًا من مشهدٍ حاضرٍ متحفَّظٍ عليه. حاضرٌ يأخذُ الماضي رهينةً ليسَاومَ عليه المستقبل.
وتأتي شاعرةٌ صديقةٌ أخرَى، هي "ديته ستينسباله"، لتقفَ بحُطامِ طائرةٍ عندَ قدمِها:

حطامُ طائرةٍ في قدمي
جسمُ طائرةٍ مُفكَّك

ولا أعرفُ مَنْ هم الرُّكاب

وماذا يحملونَ في حقائبهم

تحكُّني قدمَايَ

أذهبُ إلى غرفة الفندق في مدينتي

أحملُ حقيبةً

وأطلسَ العامِ الجاري

لا أستطيعُ بلعَ السُّفنِ المُبحرة

أتنفَّسُ أعمدةَ الدُّخانِ المُتصاعدِ مِن السُّفن

أبصقُ كلَّ شيءٍ ثانيةً

رُبَّما حداثةُ عمرِها تزامنت مع ذيوعِ أخبارِ خَطْفِ الطائراتِ وتحطّم بعضِها. تحطّم الطائرةِ هنا خالٍ من العُنفِ والإثارةِ؛ لكنَّهُ مليئ بالفُضولِ، حيثُ تُحوِّل الشاعرة "ستينسباله" حادثةَ تحطُّم الطائرةِ إلى مناسبةٍ للتعرفِ على الآخر، الآخرُ المتاحُ على النَّظر والمتعذِّر على الفهم.

هذا الشِّعرُ يُسجِّلُ اتجاهًا آخرَ بالشِّعر الدَّنماركي، وبالدقة يُسجِّلُ تنويعًا على اتجاهٍ سَبعيني حيثُ انشغل الشّعر الدَّنماركي بالحَربِ والمقاومةِ وشغَلَ قرَّاءَهُ بها.

وقبل التوسُّع بهذا الموضوع، أريدُ التوقُّف عند اتجاهٍ آخر له حضورُه وحضورُ شعرائِهِ، وهو اتجاهُ النقد الاجتماعي للشخصية الدَّنماركية، للثقافة وللمجتمع عمومًا. وهنا يظهرُ بوضوحٍ أثرُ الشاعر "بيني أندرسن" الذي يُعَدُّ من أعظم الشُّعراء الدَّنماركيين لشعبيته وسِعة تأثير آرائِه. حيثُ انضمتْ قصائدُه التي لُحِّنتْ إلى التراثِ الغنائيِّ الدَّنماركيّ. مسارُه الشِّعريُّ أدَّى به ليكونَ نصيرًا لقضايا الأجانبِ في الدَّنمارك. ينطوي شعرُه على روحِ التَّهكُّم وحكمة التجربةِ العامةِ، على دعوةٍ إلى الفهم وقبولِ الآخر. ففي قصيدته السَّاخرة "مواطنٌ عالميٌّ في الدَّنمارك"، يشيرُ فيها إلى التوليفةِ العالميةِ للشخصيةِ المحلية:

أشربُ فودكا روسية،

أرتدي زيًا أمريكيًا،

أستقلُ سيارةً فرنسية،

وأقفُ على بابِ الرَّجاء مُناديًا افتحْ يا سِمْسِمْ.

الشاعرُ "ايفان مالينوسكي" يمثلُ اتجاهًا آخرَ في الشِّعر الدَّنماركي، هو شعرُ الرَّفض، فهو يقارعُ الاستغلال ويناهضُ التسلُّط، يعتريه شعورٌ بأنه طرفٌ محليٌّ في قضيةٍ كونيةٍ كُبرى، هي قضيةُ الاستغلال ومناهضتهِ. يقطعُ الشاعرُ مالينوسكي عهدًا عليه بألاَّ

يكتب سطرًا تستفيدُ منه الفاشيةُ أو الدكتاتوريةُ، وينخرطُ طواعيةً بين صفوفِ المتظاهرينَ مِن أجلِ تحسينِ الأحوالِ العالميةِ ورفعِ قيمِ الإنسانِ الوجدانية. يعلنُ الشاعرُ من موقع المُطَّلع عن زيف ادِّعاءِ تملك الإنسان العادي لشيءٍ ما. ولا يملك المرءُ في عالمنا حتى مشاعرَه. الفردُ العاديُّ هو مملوكٌ من ملكيَّةٍ يوهَم بها، ولا ينتهي من سدادِها طيلة حياته وجهده. اتجاهُ تضامُنٍ وشراكةٍ في مقاومة. إنه شعرٌ عالميٌّ بنكهةٍ محلية. ويُعَدُّ "ايفان" عقلَ الشمالِ اللامع وصاحبَ الخطأ صفر. فيما يلي آخر قصيدةٍ كتبَها قبل رحيله:

التواري

الزوارقُ ترسُو مقلوبةً
على الجدار تتدلّى الغليوناتُ

العشبُ المغطّى بالصَّقيعِ
الأبيضِ
يخلو من أيِّ أثرٍ

نوافذ سوداء
من الخارجِ
ولا أثرٌ للدِّماءِ

obeikandi.com

المفاتيحُ تستقرُّ في أقفالِها
بصماتُ الأصابعِ على كلِّ شيءٍ
لكنْ أينَ الأيدي؟
تتساءلُ مقابضُ الأبوابِ
وعدَّة العَملِ

على طاولةِ قطعِ الأخشابِ
يستلقي لوحٌ غيرُ منجزٍ
أربعةُ أقلام رصاص غير مبريَّةٍ
الشحُّ والصَّمتُ
هما العلامة

الهدوءُ أخذَ يفقدُ صبرَه

في الفراغاتِ
تشتغلُ الفئرانُ

الميزانُ يؤشِّرُ
إلى ناقصِ ثمانين كيلو غرامًا
المنفضةُ مملوءةٌ
الزجاجةُ فارغةٌ
ثمَّة زوجُ نِعالٍ
في الزَّاوية.

obeikandl.com

وهُناكَ اتجاهٌ تطرَّقنا إليه، اتجاهُ النقد الاجتماعي، وتعبِّر عنه على طريقتها الشاعرة "مريانه لارسن"، ففي قصيدتِها (للكبار فقط) تنتقدُ الوصايةَ الجماعية على الفرد. وتبغضُ وتكشفُ حجمَ التَّزوير المُتَّبع لتبريرِ تلك الوصايا. وهُناكَ شُعراءٌ مثلَ ايريك ستينوس، بير هوي هولت، والشاعر المتمرِّد هنرك نوردتبرانت المُرشَّح الدَّنماركي لجائزة نوبل، حيثُ يتهم الثقافة الدَّنماركية بالبرود الذي يقودُ إلى البلادَة، عاشَ فترةً طويلةً في تركيا، ويقيمُ الآنَ في أسبانيا.

ولا يمكنُ إغفال شاعرٍ مثل "سورن أورلك تومسن" الذي يُفهم من شِعره، على أن الحياةَ تُساوي الموتَ إذا لم يتفوقَ فيها أحياؤها. كتب تومسن مقالاً مطوَّلاً نعَى فيه كوبنهاجن التي فقدتْ مقوماتِ كونها عاصمة أو مركز وهي بنظرِهِ ليسَتْ سوى قصبة أو ضاحية. وشعراءٌ يحتلُّون مكانةً في الشِّعر اليوم، مثل مورتن سنوكورد، يانوس كوديل، فيغو ماذسن، ف. ب ياك.

شاعرٌ آخر رحلَ شابًا يُدعى "ميشيل سترونكه" أنهى حياته بنفسه. الكلمةُ التي خلَّفها قبلَ أنْ يقفزَ من النافذة جعلتْ منه لغزًا، ومن موته أسطورةً، تقدَّم إلى النافذة، فتحها قائلاً لضيوفه: "سأقفزُ، كلُّ القافزينَ يقعونَ على الأرضِ، إلاَّ أنا، سأقفزُ إلى السَّماءِ وأبقى معلقًا بها".

obeikandi.com

قفزَ فعلاً، لكنَّ السَّماءَ تخلَّتْ عنه، فسقطَ جُثَّةٍ نازفةٍ على الرَّصيف. ومن ثم يوارَى في الأرض؛ فالسَّماءُ ليسَتْ لنا، إنَّها للنُّجوم. لكنَّ السَّماءَ تبقَى ملاذًا لنظراتِ سكانِ الأرضِ الغُرباء عليها.

الشاعرُ المتمرِّد "بول بروم" الذي اكتشفَ في مطلع شبابهِ أنه ابنٌ بالتَّبني، ويعتقدُ محبُّوه أن الشعورَ هذا أصابهُ بمرضٍ عصبيٍّ قضَى على حياتِه فيما بعد. كان يرتدي زيًا غيرَ مألوفٍ، ويضعُ الحلقاتِ في أُذنيه، والأساورَ في معصميهِ، ويحْلِقُ جانبًا من شَعره، ويتركُ الباقي. وكان مُنهمكًا في حياته الشِّعريَّة وحياةِ الدَّنمارك الثقافية. يُعدُّ مَعلمًا لمن تلاه، وله تأثيرٌ سحريٌّ على الشُّعراء الشباب، وقدَّم الكثيرَ منهم فأصبحوا شُعراءَ الدَّنمارك. كانتْ أشعارُه تؤثر في الشُّعراء والقرَّاء معًا، وإبداء رأيه في قضية يعيد طرحَها ويتسبَّبُ في تعدُّد قراءاتها. حسب التاريخ الأدبي فهو الأبُ الروحيُّ لجيل شعراءِ الثمانينيات. وفي بيته – الذي دعاني فيه لتناولِ طعامِ العَشاء مع طليقتهِ الشاعرة الدَّنماركية الكبيرة "انجر كريستسن"– تعرَّفتُ على مكتبتهِ التي تضمُّ نحو ٣٠ ألفَ كتابٍ، وقد قامَ بفهرسةِ كُتبها بنفسِه. أسَّسَ مدرسة الكاتبِ ثم أصبحتْ بعد وفاته مدرسةً عامَّة. ومِن شِعرِه اخترتُ قصيدة... "إلى أبي":

حلمتُ أني كنتُ ماشيًا
في الشارعِ بصحبةِ أبي
وسألته:
ما الذي يتناولونَه هُناكَ
في المقبرة؟
حليبٌ وعسلٌ
أجابَ
حليبٌ وعسلٌ
. . . . .
حلمتُ
أني داخلَ عربةِ قطارٍ
كان يجلسُ فيها رجلٌ،
هو أبي
لم يتحدَّث، ولم ينظرْ إليَّ
وحينما انطلقَ القطارُ
همسَ:
هل ستأتي معنا أنت أيضًا؟
. . . .
حلمتُ
أن أبي كان صغيرًا جدًا

obeikandl.com

رفعتُهُ وأجلستُهُ على رُكبتي
ورُحتُ أُهدهدُهُ بأغنيةٍ،
بكلمات قليلةٍ
لا تمت
لا تمت
فضحكَ أبي
. . . .
حلمتُ
أنني كنتُ جالسًا إلى طاولتي
أكتبُ رسالةً إلى أبي
دخلَ عليَّ أبي من الباب
أخذَ نفَسًا عميقًا،
وأنا ما زلتُ مستمرًا
بالكتابة
وعندما انتهيتُ من كتابةِ الصفحة الأولى،
ربَّتَ على كتفي، قائلاً:
سآخذُ الرسالةَ معي.
. . . .
حلمتُ
أن صوتَ أبي كان ينبعثُ

obeikandi.com

مِن مُكبِّراتِ الصوتِ
في الصالةِ الكبيرةِ
ومن بين النِّداءاتِ عن قطاراتِ الموتَى
ومن بين الجلودِ المتفسخة صارخًا
خُذني معكَ
هل تسمع؟
خذني معكِ
. . . .
حلمتُ
أن أبي كان جالسًا على مصطبة
تحتَ شجرةٍ
وأقبلتُ ماشيًا، وحينما رأيتُهُ
ذهبتُ وجلستُ إلى جانبه
هكذا جلسنا طويلاً، طويلاً
حتى صحوتُ.

هُناكَ شعرٌ دنماركيٌّ محلِّيٌّ يتَّسمُ بالمزاج، ويصدرُ عن تقلباته. الآخرُ فيه غائبٌ، يحضرُ عندما يكون عائقًا أو مزعجًا؛ أو رُبَّما حبيبًا. هذا الشِّعرُ تتكرَّرُ فيه مفرداتُ الرَّبيع ومدلولاته. المرءُ الذي يرقبُ تفتُّحَ الزَّهرة، شوقَ العينِ إلى فراشة، الشمسَ النادرة. شعرٌ يدورُ

obeikandl.com

خلفَ الأبوابِ يحسُّ بوجودِ الآخر، نادرًا ما يراه أو يحتك به. بقدر ما يتربَّى الفردُ مدرسيًا على الانضباط الثقافي والتمسُّك بالحقوقِ وأداءِ الواجباتِ، لكنَّهُ ينشأ على الحَذرِ من الغريب، وتجنُّب الاحتكاكِ البصريِّ. فالشارعُ ليسَ مكانًا للتجربة، أو تعرف أنه مَمَر، قطْعُهُ يتطلَّب السُّرعة والحَذر. وهُناكَ قولٌ مأثورٌ وشائعٌ مأخوذٌ عن قانون يانته (ينته لوْ) : " لا تعتقد نفسَك شيئًا، لا تعتقد أن بمقدورك أن تُعلمنا أو تضيفَ إلينا شيئًا". هاتان نقطتان من عشر نقاطٍ يتضمنُها القانون المذكور الذي وردَ على لسان بطلٍ في روايةٍ تحمل اسمَ ينته، وهذا القانون كما يزعم بأنه كبحُ الجموحِ الفرديِّ للشخصية الدَّنماركية.

والآن أعود إلى جديدِ الشِّعر الدَّنماركي، حيثُ الاحتكاك بالمظاهر السياسيةِ لتحويلها إلى همومٍ وجوديةٍ ويومية، فالسياسةُ صورةٌ متحولةٌ عن الثابت الوجوديِّ ومتلاعبة به. السياسةُ فنُّ صناعةِ الأزمات واختراع المصادمات. تظلُّ السياسةُ عبرَ واجهةٍ هي: "التليفزيون" هذا الضيفُ الفضولي والثرثار، يحدثنا ونحنُ نتناولُ الطعام عن ضحايا العُنفِ، ويصوِّر لنا أشلاءَهم وحجمَ دمارهم، راجيًا إلا يُفسد ذلكَ علينا شهيةً. من جرَّاء هذا الاتصال غيرِ المسبوق، تنشأ تفاصيل يومية يُرَغِّبُ بها لتكونَ مشتركةً. حالاتُ الحربِ المتزايدة ولحظاتُ السَّعادة النادرة تؤلِّفُ بين مشاهدينَ

مختلفينَ في الثقافةِ ومختلفينَ على الموقف. ما يحدثُ اليوم، خلافًا لشعر حقبةِ الأمس، حيثُ شارك الشُّعراء الآخرين قلقهم من النزوع إلى عسكرة الكون. فالشاعرة "بيا تافتدروب" التي ترى أن عسكرةَ الكونِ تعني وثوبَ الحرب، والهدف هو إصابة القلب. فيما ذهب الشاعر الراحل "أوفا هادر" عضو الأكاديمية الدَّنماركية، إلى أن دفعه شعوره الحاد بالوحدة وإفراطه بالكحول، إلى طيٍّ حياته ومواجهة موتهِ هزيلاً، وحيدًا ومنسيًا في أحدِ دورِ العَجزة. قراءةُ قصيدتهِ (المُعضلة) تشي بوقتِ كتابتها، والأرجحُ أن يكونَ يوم أحدٍ من آحادِ شهر أكتوبر المتورِّط بتعميم العتمة. الشهرُ هذا هو الذي تستوي فيه العتمةُ والبردُ على الدَّنمارك.

إنَّها المُعضلة
يلتفُّ مِنْ حولي
ظلامُ أكتوبر
وبعيدًا عن التفكيرِ بالحركاتِ العسكرية
الجاهزةِ وراءَ البحار وخلفَ الحدود
بالأسلحةِ المشرَعة نحوَنا
الطائرات المتأهبة
أو تلكَ التي في السَّماءِ
الغواصات التي أقرب مما يظُنُّ المرءُ

obeikandi.com

مِن الصَّعبِ عدمُ التفكيرِ
بنزلاءِ معسكراتِ الاعتقالِ الصاحينَ الآنَ
مِن الصَّعبِ تجاوزُ تفاصيلِهم الماثلة أمامي
وأنا أقرِّرُ إنهاءَ مسائي
مودِّعًا أوراقي في الدَّرج
مطفئًا مصباحي
ومستسلمًا للنومِ

قصيدةُ الشاعرِ الراحلِ "هاردر"، لا تذكِّرنا بنُزلاءِ معسكراتِ الاعتقال، إنَّما بالطبيعةِ الدَّنماركية التي تأسرُ المِزاجَ وتعتقلُ الفُرصة للاشتراكِ مع الآخر. فالطبيعةُ تبدو حاسمةً، ولا يستقيمُ الحديثُ عن الدَّنمارك وعن شُعرائها، ما لم يقوَّم دور الطبيعة عمومًا والمناخ تحديدًا. تفرضُ الطبيعةُ الحديثَ عنها، بتجلياتها الجغرافيةِ والمناخيةِ. الإنسانُ نبتةٌ حيةٌ في غابةِ الكون. يتأثرُ بعواملِ الطبيعةِ ويؤثِّرُ فيها. أعتقد أن البشرَ أشجارٌ حيَّة، قد لا تموتُ عند اقتلاعِها من تربتها وغرسها في تربةٍ أخرَى، لكنْ قد تفسدُ أو تتبدَّلُ ثمارُها. الطبيعةُ لها دورٌ، والمناخُ له تأثيرٌ أيضًا في النفس، هنا حيثُ يصبحُ شروقُ الشمس دافعًا لنشوءِ الابتسامةِ والقيامِ بها من سُباتها الغائم.

obeikandl.com

يصفُ طبيعةَ الدَّنمارك البروفسور "مارك أوشي" من مؤسَّسة الأبحاثِ الألمانية والاسكندينافية في جامعة نانسي الثانية في فرنسا، على أنها مُفاجِئة، حيثُ إن أعلى قمَّةٍ لا يتجاوزُ ارتفاعها ١٤٧ مترًا عن مستوى سطح البحر؛ فالبلادُ الدَّنماركية مستويةٌ، لا تتناغمُ طبيعتُها مع الميلوديا الشِّعريَّة العظيمة الخالدة. يتَّسمُ الأدب الدَّنماركي، بسمتي: الألم والغموض الرُّوحي وهما السمتان اللتان تخلفان إحساسًا بالخيبةِ والإحباط مما يجعلُ القارئَ يبحثُ عن حوافز إضافية، لمواصلةِ البحث.

وبغضِّ النظر عما تقدَّم – والرَّأيُ للبروفسور أوشي– فإنَّ الأدبَ الدَّنماركي، هو أدبٌ نقيٌ وأصيلٌ، يُعدُّ واحدًا من الآدابِ العالميةِ المميزة، وما يمنحه خاصيته العالمية كونُه يرتكزُ على المِزاجِ الذي يبدو غريبًا، إلا أنه يتطلع إلى آفاقٍ إنسانيةٍ رحبة. ولا نختلفُ مع البروفسور أوشي في ما يذهبُ إليه، إن أجواءَ حرية التعبير وحقوق الكاتب المكفولة مؤسساتيًا، تجعلُهُ شفافًا فيما يتناولُ ويطرحُ من قضايا دون خوفٍ من رقيبٍ أو عُرف، والشفافيةُ إلى حدٍّ ما ميزةُ الثقافةِ والأدبِ في الدَّنمارك.

منعم الفقير

alfaker@assununu.dk